



المخرجة مي المصري؛

الكاميرا تهنئي الشجاعة

تتفاءل المخرجة الفلسطينية مي المصري بالصورة ولا تقبل التشاؤم رغم أنها أخرجت أفلاماً وثائقية في لبنان وفلسطين وعن لبنان وفلسطين. درست مي السينما في سان فرانسيسكو وأنجزت معظم أفلامها في بيروت... الكاميرا سجلت. الكاميرا تسجل. تتكرر الصور وتتراكم وتحكي عن الشبه بين الماضي والحاضر. مي المصري حملت الكاميرا منذ الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ حين خاضت تجرّبتها الإخراجية الأولى مع زوجها المخرج اللبناني جان شمعون. ثم عرفت أفلامها المشتركة النجاح والانتشار ("تحت الألقاض" و"زهرة القندول" و"جبل الحرب" و"أحلام معلقة"...). أحبت كاميرا مي النساء والأطفال، وبين الأفلام التي قدمتها ثلاثة أفلام عن أطفال فلسطين، "أحلام المنفى" و"أطفال شاتيلا" و"أطفال جبل النار" الذي صورته في مدينتها نابلس رغم ظروف الاحتلال القاسية ومنع التجول، مخترقة خلسة مناطق عسكرية. فيلمها الوثائقي الأخير "يوميات بيروت: حقائق وأكاذيب" ولد من قلب الأزمة في لبنان وعرض في قلب الأزمة. لحقت مي بكاميراتها التي أخذتها إلى وسط بيروت بعد اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري. وجدت مي نفسها بين الشباب في "مخيم الحرية". ثم لحقت هي والكاميرا بالصبيّة نادين التي ركبت الصور والمشاهد يومياتها. تحدّثت مي من خلف الكاميرا مع شباب لبنانيين. صورتهم في الماضي، صورتهم الآن. ماذا رأت كاميرا مي المصري؟ ماذا ترى الآن؟ يحقّ لنا أن نتكلّم على خيبة. مي كانت هناك في زمن الأمل. سمحت لها الكاميرا بأن تراقب اللحظات والحركات والكلمات، أن تلمح طرف الحقيقة التي يقال دوماً إن البحث عنها جارٍ. "يوميات بيروت" جذب جمهوراً لبنانياً واسعاً متنوع الانتماءات السياسية والفكرية والحزبية. عرض الأسئلة المطروحة، الأسئلة التي ما زالت على النار، وأشار في أسلوب غير مباشر إلى الخيبة.

هالة كوثراني

كانت مي المصري مع الكاميرا حيث أوجت الأحداث ولادة ما سمي استقلالاً جديداً وما ذهب البعض إلى اعتباره وطناً جديداً. كانت مي المصري في كواليس الاحتفالات اللبنانية اليومية بالحرية، والأرجح أنها تعثرت ببعض الأقتعة أو سجلت كلمات من هناك أو هناك كلمات أنبات بالخبية. الكلام على الخيبة وعلى تجربة الشباب في لبنان مع الخيبة ليس جديداً بالنسبة إليّ. ربما لأنني أخرجت مع زوجي وزميلي جان شمعون فيلم بيروت جبل الحرب الذي عرض تجربة شباب لبنانيين خلال الحرب الأهلية وأظهر انسيابهم إلى القيام بأفعال فضلية والاستغلال الذي جعلهم الرعاء ضحاياها. عندما بدأت تصوير فيلم يوميات بيروت: حقائق وأكاذيب أحسست بأن الأحلام الكبيرة التي طرحها الشباب الذين لا ينتمي جزء منهم إلى أحزاب، يمكن أن توصلهم إلى الخيبة. وقد دفعتهم إلى البقاء في ساحة الشهداء في وسط بيروت، حيث انتقلوا للعيش ريثما تقدّ مطالبهم، عاطفة صادقة قوية وحبّ التغيير. كان هؤلاء الشباب كانوا يبحثون لأنفسهم عن أدوار. أحسست بأنهم يمكن أن يصلوا إلى الخيبة، وهذا ما حدث رغم أن المشاهد من خلال الفيلم يلحق بالشخصيات ويرافقها ويكتشف معها الأحداث.

نادين التي لحقت بها كاميرا مي المصري كانت صادقة في بحثها عن التغيير. هذا ما يقوله لنا الفيلم، فهل كانت نادين نموذجاً لشباب مخيم الحرية؟ تمثّل نادين (٢٥ عاماً) التي تلحق بها الكاميرا وتعرض المشاهد يومياتها في "مخيم الحرية"، شريحة كبيرة من الشباب الذين يبحثون عن أنفسهم، عن أدوارهم ويطمحون إلى التغيير وإلى حياة الأفضل، ويريدون القضاء على الطائفية والفساد، كما يريدون نظاماً عادلاً، طرحت هذه الأفكار كلها خلال الحرب الأولى، الحرب الأهلية. فيلمي الأول عن جبل الحرب ينتهي بعدما تقول إحدى الشخصيات ما قالته نادين عن الحاجة إلى نظام عادل، رفض كثيرون الحرب والطائفية خلال الحرب الأهلية. ثمة من ساق إلى الحرب الشباب الذين اكتشفوا أنه تم استغلالهم وأنهم ضحايا. والآن أيضاً كما رأينا من خلال تجربة نادين وأصدقائها في الفيلم، بعض الشباب اكتشفوا أن تجربة نزولهم إلى ساحة الشهداء لم توصلهم إلى ما أرادوه. لكننا نسمع أيضاً عن غياب الرغبة في العودة إلى الحرب، دوماً يقول المسؤولون إنهم لا يريدون الحرب، لكن في الوقت نفسه يمكن أن تؤدي أحداث معينة إلى ما لا يريدونه.

تحاول مي المصري أن تركز دوماً في عملها الإخراجي على الأمور الإيجابية. في يوميات بيروت ركزت على حيوية الشباب، على مشاهد مليئة بالحياة تعرف من خلالها إلى تساؤلات الشباب المهمة جداً والتي تعتبر دليلاً على صحة المجتمع. التساؤلات تدلّ على أن الشباب لا يقبلون بالضرورة كل ما يقمّ إليهم، لكن الوضع العام ليس سهلاً ولبنان هو جزء من المنطقة. إلا أنني شخصياً أحب رؤية الأمور الإيجابية، والأشخاص الذين اختارهم قرييون مني فكراً وعاطفياً. أحب الأشخاص الذين يظهرون عواطفهم ويعبرون عنها والذين يجذبون الكاميرا. هؤلاء يعطونني الكثير من الأمل.

سينما مي المصري هي سينما الواقع "الواقعي جداً"، لكن الواقع أغرب من الخيال، خصوصاً الآن. كما ليست أفلامي متشابهة، لدى مشاريع كثيرة بعيدة عن اللحظة التي أعيشها لكنني في الوقت نفسه، أحس بأنني يجب أن أعبر عما أعيشه وأحس به. أستطيع أن أفهم الوضع وأن أعيشه وأعيش حياتي حين أعبر من خلال السينما، من خلال الصورة. كما أحس بأنني أستطيع أن أبدي رأبي من خلال شخصيات أفلامي. هكذا تساعدني أفلامي على العيش. وفي الأفلام التي يسمونها واقعية هناك الكثير من السحر والفن والخيال، إضافة

إلى التحدي اللذيذ في السينما التي يسمونها وثائقية وتحكي قصصاً كثيرة. تنطلق مي من فكرة سرعان ما تتبلور وتتعمق مع البحث. وبعض الأفلام تتبع مي المفاجآت خلال تصويرها. أحب أن أرتجل. فيلمي هذا "يوميات بيروت" تطلب الكثير من العمل، والموضوع حساس جداً ولا يمكن أن أسمح لنفسني بأن أتأوله في شكل سطحي. وقد أحسست بقل مسؤوليتي خلال إنجازه. ربما لذلك خرج متضماً مواقف كلها. وقد أحببت أن يستعرض المشاركون فيه مواقف مختلفة، كما أحببت ضياع الأشخاص في الفيلم، وأعجيتني في نادين أنها تبحث وتسال وتتغير. لذا تابعتها في بحثها وتغيرها واصطدامها بخيبتها وعودتها إلى أحلامها. عكست ردة فعل الجمهور على الفيلم الانتماءات المختلفة التي يجد اللبنانيون أنفسهم مستسلمين لها، عن قصد أو عن غير قصد. أما مي المصري، فقد سعدت بردة فعل الجمهور لأن الفيلم فتح مجالاً للأسئلة دون أية مشكلات أو تشنجات. ولاحظت أن الجمهور متنوع الخلفيات الاجتماعية والثقافية، وقد ظهر تنوعه في أسئلته. ورافقت عرض الفيلم في أماكن مختلفة سلسلة نقاشات، كل يوم كنا تجري نقاشاً حين عرض الفيلم في صالة "ميتروبوليس" في مسرح المدينة في بيروت، وكنت خائفة من عرضه في هذا الوضع، فالفيلم يطرح الأسئلة الآنية ويدلّ على الانتسمامات، ويصعب في لبنان عرض



أفكر من خلال الصورة التي تبث الحياة والأمل وهي فن وشعر وسرر ذاكرتي مليئة بالصور والألوان

فيلم يفتح الجروح كلها على اختلافها. لكنني أحسست بأن الناس يريدون طرح هذه الأسئلة، يريدون الذريعة لطرحها والفيلم قدّم إليهم هذه الذريعة. حتى أن الفيلم يعرض في المدارس. كيف تغير عمل مي المصري في زمن سيطرة الصورة؟ ما تغير هو أنني أصل الآن إلى جمهور أكبر. تسمح لنا الفضائيات العربية العديدة بأن نصل إلى جمهور عربي أوسع. كان جمهورنا أوروبياً وعالمياً، كان جمهور ال"بي. بي. سي" وغيرها. لكننا أصبحنا نصل الآن إلى الجمهور العربي مباشرة، وبواسطة كاميرا الفيديو نستطيع أن نصنع الفيلم مواكبين الحدث. أما كاميرا السينما، فكانت تتطلب منا وقتاً طويلاً لصناعة الفيلم. الصورة فعالة جداً الآن، وتدأني تجرّبتني على أن أفلامنا تؤثر في الجمهور وتجعلهم يتفاعلون معنا. عرض فيلمي "أحلام المنفى" في أماكن مختلفة، في محطات تلفزيونية عديدة حول العالم، في الولايات المتحدة والبرازيل واليابان، وقد تلقّيت من مشاهدي الفيلم مئات

ثقافة لها

الرسائل من بلدان العالم المختلفة. أعرف أن الفيلم لن يغيّر العالم، لكنه يؤثر في مشاهديه. وقد كت أحياناً في لندن أجهز العمل على فيلم عن الأطفال الذين شاركوا في "أحلام المنفى"، فيلم يعرض ما أصبحوا عليه الآن. إحدى "بطولات" الفيلم التي دخلت لندن لاجئة لم تستطع خلال ٧ أعوام الحصول على أوراق رسمية. وحين التقيت محاميين بريطانيين وإيرلنديين أرادوا مناقشتي في مشروع متعلق بالفيلم، طلبت منهم أولاً مساعدتها. وقد ساعدوها على أن تحصل على اللجوء. كما سمحت أرباح الفيلم بأن يكمل الأطفال الذين شاركوا فيه دراستهم. من هنا أقول إن للصورة تأثيرات مختلفة لا تقتصر على الجمهور الموجود في القاعة. الفيلم كما علّمتني تجربتي يلعب دوراً إيجابياً.

لا تسمح مي المصري لليأس بأن يتسلل إلى حياتها. أقوم اليأس دوماً، أقوم احتمال اليأس الذي يهددنا دوماً في عالمنا هذا. أقامه لأنه خطر ومدمر. أقامه من خلال الصورة التي تبث الحياة والأمل والتي هي فن وشعر وسحر، وكلّ ما تمثّله السينما بالنسبة إليّ. الصورة أقرب إلى شخصيتي، وأجيد التعبير من خلالها. أفكر من خلال الصورة أيضاً. وقد شهدت المراحل التي عشتها تغيرات عديدة، فأحسست بأن الصورة يمكن أن تعبر عما أعيشه وأن تصل إلى جمهور كبير. الصورة عمل فني، والسينما قريبة مني، ذاكرتي مليئة بالصور والألوان.

هل الكاميرا سلاح مي؟ تمنحني الكاميرا الشجاعة، فأحس بأهمية الصورة وبأنها تستحقّ أن أخاطر لأجلها. كما تدفعني متعة كبيرة وإحساس بالقوة والتحدي إلى المغامرات الخطرة. ثم بعد كل تجربة أحس بأنني أقوى.

تلقتي المصري خلال تصوير أفلامها أشخاصاً عديدين والذين تعيش مع بعضهم خلال أشهر. أفلامي تطلب مني إجراء بحوث وأحياناً أن أعيش في وضع معين في مكان معين، أن أغير حياتي خلال مدة معينة. عشت مع أشخاص لا يمكن أن تسمح لي الظروف بالعيش معها لو لم أكن مشغولة بتصوير فيلم من أفلامي. خلال تصوير فيلم "جبل الحرب" على سبيل المثال عشنا مع شباب كانوا يعانون مشكلات اجتماعية وسياسية مختلفة. وخلال تصوير فيلم "زهرة القندول" أمضيت أنا وجان مدة طويلة في قرى في جنوب لبنان. أعيش أنا وجان مع الناس الذي تصورهم، نتعرف إلى واقعهم ونتأقلم معه ونعيشه قبل أن نبدأ التصوير. نصنع الثقة بنا والعلاقة الحميمة التي تربطنا بهم، لذا حافظنا على علاقاتنا مع الأشخاص الذين صورناهم وكانوا أبطال أفلامنا.

محاولة التطرق إلى موضوعات بسيطة عادية غير مرتبطة بقضايا كبرى ترف يغري مي المصري، لكن...

أحس بأننا لا نستطيع أن نحيا بساطة الحياة التي أعيد اكتشافها كلّما سافرت. أجد أنهم (في أوروبا أو الولايات المتحدة) يعانون فراغاً وكآبة. وأحس بأننا نحن الذين نعيش الحروب، تلغى الحيوية على أيامنا. وهذا ما أسمع من الجمهور الغربي، يقولون إن الأولاد في فيلم مثل "أحلام المنفى" يسكنهم فرح داخلي وحيوية. ربما سمحت المعاناة لهؤلاء الأولاد بالتعبير عن عواطفهم... أحب أن أخرج أفلاماً عن شخصيات تاريخية ثم أقول لنفسني إن الفيلم التاريخي يحتاج إلى بحث طويل. أعتبره نوعاً من التحدي. لكن قصصاً كثيرة تجذبني وأفكر فيها، قصص غير متصلة في شكل مباشر بالواقع الذي نعيشه. أحب الأشخاص الذين يتحدثون ظروفهم ويتبرّدون عليها. أتعاطف جداً مع المرأة التي تواجه الصعاب وتحقّق مرادها. أحب أيضاً الأشخاص الذين يشبهون شخصيات سوريلية. لكن أفكارني هذه تدرج كلها ضمن مشاريعي المؤجلة. 🇲